شيئاً بدون فائدة . تلك القوة التى وهبت الانسان هـذا الفكر الطموح والعقل الجموح والاحساسات المتعاكسة، والاميال المتضاربة، لحكمة بالغة ومقصد عظيم، اذا التقي الانسان بنفسه بين يدي هذه القوة ثلج صدره واطمأن على نفسه لتحققه ان هنالك قوة معتنية به ومهيمنة عليه . ولو فقد الانسان الثقة بهذه القوة فكيف تدخل نفسه طمأنينة ام كيف يتذوق لذة الراحة والسكينة ؟

الانسان مفتقر في كل لحظة من لحظاته الى من يشاركه فى احساساته ويشاطره فى أحزانه وأشجانه، فكيف به لو فقد الثقة بأصل حياته، ورأى نفسه في هذه اللانهاية وحيداً ضعيفاً مهدداً فى كل لحظة بما يُبيده ويبدده ؟

الانسان يحتاج الى روح من الامل فى كل حركة من حركاته فى اعماله، فكيف به لو تولاه اليأس فى وجود من يعتمد عليه عند ما تلم به جسام المصائب وعظام النوائب ؟

الانسان انسان بروحه اكثر مما هو بجثمانه، فهو محتاج فى كل خطرة من خطرات احساساته ومراميه الى غاية كمالية يوجه اليها تلك الاحساسات والمرامي فكيف به لو عمى عن روح الوجود وقيومه ومنتهى كل جمال وكمال ولم يرفى كل هـذا الكون الهائل الا ذلك الصمت المرعب والسكوت المهيب ؟

أليس من المؤلم للانسان والجارح لفؤاده ان يتوهم ان هذه اللانهاية المحيطة به من كل جانب خالية من سميع مجيب وانه لا شيء فيها يسمع ضراعته القلبية ولا مناجاته السرية ؟ أليس من الثقيل عليه ان يرمى ببصره الى السماء فلا يبصر فيها الا فراغاً مدهشاً وسكوتاً مريعاً ؟

لقد دلت الآثار التاريخية ان الانسان جعل الايمان دائما اشفق المسلين له فى مصائبه وأرأف المعزين له فى نوائبه . فكم فؤاد موجع بنازلة لولا الايمان لانفطر وكم كبد حرّى لولاه لذابت كمداً وحسرة ! ماذا يهبط روح السكينه والتأساء على عزيز قوم ذل، أوغنى قوم افتقر، اذا جلس يفتكر فيما آل اليه حاله وسط الليل الحالك وهو يتنفس الصعدا ، غير (ايمانه) بأن معه من يعلم السر وأخفى ، ويقدر على منحه الصبر على مصيبته أو القوة على استرداد ثروته ؟ ثم ماذا ينزل روح الصبر والسلوان على روح ام فقدت ولدها في ريعان شبابه وميعة صباه غير ( ايمانها ) بانه أصبح وديعة لدى مبدعه الذى هو اشفق عليه منها فى عالم غير هذا

مليوناً من الفراسخ وان هـذه الشمس بهذا الحجم الهائل لاتقارن بالشموس الاخرى التى تسبح مثلها فى هذا الفضاء المدهش .

وان اردت ان يكون لك فكرة عمومية على حجومها فاعلم ان أقرب نجم منا يصل الينا ضوءه فى ثلاث أو أربع سنين ، فاذا كان ضوء الشمس يصل الينا فى أقل من أربع دقائق ومع ذلك فهى أكبر من الارض بمليون وأربعمائة الف ضعف فكم يكون حجم نجم لايصل ضوءه الينا الا فى أربع سنين ، اي فى ( ٢٠٧٣٦٠ ) دقيقة . . . . . ثم ماذا يكون حجم الشعرى التى يصل الينا ضوؤها في ٢٢ سنة ! ! ! ! !

خل هذا جانباً وقل لى كيف تتصور حجوم تلك النجوم التي تكتشف جديداً ويزعم علم الفلك ان ضوأها لم يزل سابحاً في الفضاء من يوم تكونها الى يوم وصول ضوئها الينا اى فى ملايين من السنين . . . أليس فى هذا التخيل مايرعد الفرائض ويأخذ بمخنق التصور ؟

هذا بالنسبة لما فوق رأسك ، اما ماهو بين يديك وخلفك من ممالك الطبيعة من جماد ونبات وحيوان وانسان فليس أمرها بهين عليك ، لانك لو استعرضت شيئاً قليلا من عجائب النباتات ورأيت انك تلقى الى الارض بزرة لا تكاد تحس بها بين أصابعك فتراها بعد سنين شجرة ذات جذع غليظ ، وفروع ممتدة الى أمتار عديدة وأوراق وأثمار ذات ألوان وطعوم ، واريج يفغم الانف من مسافات بعيدة ، ثم لو طفت على مملكة الحيوانات واستحضرت الى فكرك تلك الكائنات المختلفة فى الصور والاحجام والاشكال والطبائع والغرائز والحيل مما لا تكفي المجلدات لشرح عجائبه ، ثم لو تفكرت في ان المادة التي هى أصل كل هذه الصور البديعة مجهولة لديك بالمرة ، لرجعت وكلك شعور بضعفك وعجزك ، واحساس بوهن طبيعتك وحقارة شخصك ، ولوجدت فؤادك ساجداً بفطرته امام هذه القوة العظمى التى ابدعت هذا الوجود المدهش ، ولتحققت انك كلما ازددت بالكون علما ازددت احساساً بجهلك ، وشعوراً بضعفك واحتياجاً لمن يأخذ بيدك ، ويسكن جيشان صدرك . « انما يخشى الله من عباده العلماء »

ثم انك كلما رنوت الى اجزاء هذا الكون ورأيتها تتلاشى وتتجدد ، وتتفرق وتتجمع ، ووقفت على حركة سريان الحياة من النبات الى الحيوان الى الانسان وجدت نفسك

Digitized by Google

وعجباً ، ازداد أمرها غموضا فى فكره ، وتبين له انه وسط بحر من مجاهيل وأسرار أيسر ما يستطيعه أمامها الاقرار بعجزه وضعفه،والاذعان بحقارته وضؤولة شخصه ، واحتياجه المطلق لملجا يلجأ اليه ، وموئل يعوّل فى النجاة عليه ، وفقرة لقوى يهبه من قوته، ورحيم ينشر عليه من افاضات رحمته .

هذا هو مبدأ التدين ، والباعث الطبيعى على العقيدة ، والسائق القاهر للبحث عن خالق الكون جل وعز ، وهو بعينه الدافع الذى دفع الامم للتمسك بالاديان ، والرضوخ للكهان ، وتسليمهم الامر لهم فى كل شان . وهو بذاته أيضاً الداعي لارسال الله تعالى رسله تترى الى الامم بالهدى ودين الفطرة .

ربما يقول قائل : « ان هذا التصوير البديع ان صدق على الانسان مجرداً عن آثار العلم فلا يصدق عليه وهو كما نراه اليوم ، ثملا من رحيق المعارف ، نشوان من سلافة المعلومات ، مدعياً انه ادرك المعلولات والعلل ، ووقف من امور الكون على مالم يحلم به الاول ، ولا اضطرب لهم به أمل »

نقول لهذا المعترض هوّن عليك ! جرد نفسك من كل ماذكرته لك من آثار الوراثات والعقائد ، وما قرأته فى كتب الملاحدة من الظلمات الكثيفة ، ثم قف ذلك الموقف بما لديك من العلم ، وابدأ بنظر الفضاء المحيط بك من كل جانب ، واستورد الى فكرك النظريات الرياضية التى تثبت لك ان الفضاء ممتد الى مالا نهاية . . . . أي انه ليس له حد ! وانه مشحون بعوالم لاتحصى من نجوم وكواكب وتوابع وذوات أذناب ، وان الارض التى أنت عليها ليست الا كالذرة بالنسبة لتلك الاجرام الضخمة ، وتذكر ماقرأته فى ابحاث ( كبلر ) و ( كوپرنيك ) و ( هرشل ) و ( زولنر ) و ( فلامريون ) من أن الارض كوكب من الكواكب السيارة السابحة فى الفضاء حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متراً ونصف كيلومتر ( في الثانية الواحدة ) وانها ذات شكل كرويّ محيطها ( ٤٠٠٠٠ ) كيلو متر وانها واحدة من سيارات أخرى أكبر منها حجما ، دائرة كلها حول تلك الشمس المضيئة التى هي أكبر من الارض مليوناً واربعمائة الف مرة ، وان المسافة التى تفصلها عن الارض هى ثمانية وثلاثون

## ﴿ موجز من فلسفة الاديان ﴾

### ما هو الدين ؟ (١)

ليجرد الانسان نفسه ولو لحظة من آثار الوراثات المختلفة التى لها السلطان الأقوى على فكره وخطرات هواجسه وعلى كل حركة وسكون فيه ، وليمح من لوح ذاكرته كل ما نقشته فيها المؤثرات المختلفة فى المكان الذى يعيش به وفى الاسرة التى هو فرد منها وفى الجمعية التى هو من آحادها، وليتناس كل ما علمه عن الوجود وكائناته وما أدركه من مخلوقاته، وليحسب نفسه خُلِق من ساعته ، ثم لينظر الى الوجود نظر الذي لا يملك من العلم الا ما تهديه اليه مشاعره الظاهرة ، واحساساته الباطنة ، وليبدأ بتسريح نظره فى تلك القبة الزرقاء التى تحيط بالكون من كل جانب ، ثم ليمر به على ما يحيط به من الخلاء المترامي الاطراف الى كل جهة يوجه اليها بصره ، ثم ليلق نظره على نفسه بعد ذلك . فماذا يجيش في صدره من هذه الجولة السريعة ؟ لا مشاحة فى انه يؤوب وفى نفسه رعدة من الخوف والدهشة ، وألم من الفرق والوحشة ، لما تبين له من عظم الكون وشسوع أكنافه ، وحقارة شخصه وضؤولة جثمانه !

رأى تلك اللانهاية فوق رأسه فوقف عقله منها حيث انتهى بصره ، وارتد فكره منهزماً يرجف من شدة ما أصابه من فخامة هذا المجهول الهائل المسدول عليه من كل جانب !

أراد تصوّره بما فطر عليه من حب اكتناه المساتير ، ان ينفذ الى صميم ذلك الامر الجلل فانحلت عزماته انحلالا ، وارتخت معاقد همته ارتخاء ، وأخذ الفزع بمتنفسه أخذا كاد يفقده حسه من شدة ما شعر بحقارة ذاته وتفاهة أمره فى وسط هذه اللانهاية الفخيمة !

رنا ببصره الى ماحوله ، وما بين يديه وخلفه ، فرآه محاطاً بفضاء تضيق عنه سعة خياله ، ويحرج دونه متسع وهمه ، فأنزل نفسه منه على قدر ما أخذه جسمه من حيزه غير المتناهي ، فكاد يصعق من الوجل أمام هذا السكون المطلق ؛ فاذا جن عليه الليل وهو في تلك الحالة الساذجة ، ورأى أديم السماء قد تلون بذلك اللون القاتم ، وتلألأت فى ارجائه النجوم والكواكب ، وبرزت تلك القبة السماوية فى ذلك المعرض المرصع ، وزادتها مهابة الليل فخامة

---

(١) انظر مباحثنا الشهرية « الاسلام فى عصر العلم » فى كتاب « خاتم النبيين » صحيفة ٥٤

نريد ان ندرس ماتصدينا له كما يدرّس العالم الحيوى ( البيولوجى ) تأثير الحرارة الجوّية والارضية ، على الخلايا الحيوانية ، من حيث التحلل والتركب ، والتبخر والامتصاص والافراز ، وكما يدرس كيفية تأثير الاوساط المختلفة ، ذات الفواعل المختلفة على الكائنات الحية من حيث ما تكابده طبيعتها من مقاومات ومدافعات وما تنتهى اليه من غلبة أو استسلام

نريد ان ندرس تلك الحوادث الجليلة التى قلبت شكل العقول والافكار . و بدلت الارض غير الارض ، والامم غير الامم ، والقلوب غير القلوب ، فجعلت من تلك الشرذمة العربيـة في سنين قليلة ، أمة أقامت أمر الله في الارض ، وأرغمت معاطس الجبابرة من الملوك والقياصرة ، وخلصت الشعوب من آصار كانت عليهم كالجبال حملا ، كما يدرس العالم التشريحى ( الفزيولوجى ) كيفية انتقال الخلية الحية فى المادة الملقحة الى جنين ثم الى طفل ثم يافع ثم شاب ثم كهل ثم شيخ ، مع مراعاة الاشراف فى كل دور من هذه الادوار على كنه تلك الفواعل الطبيعية التى أثرت عليه وتأثر هو بها ، وما قابلتها به طبيعته من حيث الانفعال ، والمقاومة والنماء والحركة . نعنى بكل مامر أننا نريد ان ندرس تلك الآثار على طريقتها المُثلَى وأسلوبها الطبيعى الصادق ، لا بالجمل المنمقة ، والتعبيرات المفخمة ، التى تسهل على الكاتب ولا يهابها الناقد المحاسب .

لذلك سنبدأ ان شاء الله بايراد موجز من فلسفة الاديان ، والادوار التي يمر بها الانسان من حيث الاستسلام للعقيدة او التردد فيها وعلاقة ذلك بالجهل والعلم والحضارة والبداوة وغير ذلك من الاسباب الادبية والمادية ، لنستطيع ان نجلى مركز القرآن للاذهان ، ونظهر مقامه العالى بين مؤثرات العمران ، وليرى القارئ معنا ايضا لمحة من كمال خاتم النبيين ، وإمام المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم نطوف بالقارئ على ما يقتضيه المقام من فصول وأبحاث فى الوحى والنبوات ، وخوارق العادات ، والشؤون الروحانية الاخرى التى يميل لمعرفتها الانسان لعلاقتها بمستقبل حياته ، وارتباطها بشؤون معناه في سويداء فؤاده ، ثم نمر به بعد ذلك على موجز شاف من تاريخ القرآن الكريم من حيث وحيه وجمعه وترتيبه وناسخه ومنسوخه وتعدد قراآته الخ الخ مما لا يستغنى عنه مطالع القرآن الحكيم . وعلى الله وحده التكلان ، وهو المستعان .

Digitized by Google

العصرية ، ويدعمه بدعائم المباحث الجديدة الفلسفية ، فقد أصبح العلم الاجتماعى بفضل المجهودات التى بذلت فى تأسيسه في القرن الماضى من العلوم البعيدة الاكناف ، المترامية المناحى ، الكثيرة التشعبات والتفرعات ، الجمة العلاقات والمناسبات بغيرها من المعلومات ، لا غرو فهو ثمرة جميع العلوم الكونية ، والقمة الباذخة التى انتهت اليها العقول القوية . فتحديد مركز أكبر مؤثر من مؤثرات العمران وهو القرآن ،لا يقتضى فقط ان ندرسه فى ذاته من وجوه اعجازه وحكمته وبيانه وتأثيره على العقول والعواطف ، ولا ان نشرح حال الامة التى نشأ فيها ونزل اليها من قبله ومن بعده ، ولا ان نشير الى حال الرسول صلى الله عليه وسلم من جميع ما يستدعيه مقامه العالى من الكمالات الصورية والمعنوية . تلك المباحث سنلم بها ان شاء الله كلها ، ولكنها ليست النقطة التى نرمى اليها ، ونمنى النفس ببلوغها . وانما النقطة التى نرجو التوفيق للوصول اليها بهذه المقدمة هى درس تلك الآثار الكبرى ، وفهم تلك الحوادث العظمى على الطريقة الناقعة لغلة النفس ، الشافية لرسيس الصدر ، الكاشطة لغلف الشكوك ، الماحية لأدران الشبه ، الآخذة بالفؤاد عن متاهات الحيرة ومحارات الوحشة ، الفاتحة للروح منفذاً الى عالمها العالى لتبل منه أوام الشوق وتستجلى به مناظر الكمال ، ومظاهر القدس والجلال ، في عالم العلى والجمال .

هذا مطلب عزيز المنال ، بعيد المجال ، نرجو الله أن يعيننا عليه بواسع رحمته ، وجليل فضله ومنته ، انه واسع العطاء ، سميع الدعاء .

هذا الغرض الذى وضعناه نصب أعيننا لا ينال بوسائل البحث المعروفة واسبابه المألوفه ، بل لا بد له من طرق جديدة ، ومناهج مبتكرة ، توصلنا بمعونة الله الى ما تصدينا له من أمثل السبل وأقومها ، ونحن آمنون العثار ،واثقون بنيل الاوطار .لذلك نرانا مسوقين لان نحاول درس موضوعنا على الطريقة العملية التى يدرس بها العالم النباتى مثلا كيفية تأثير الاشعة الشمسية على المادة الخضراء لاوراق الاشجار ، وضرورة تلك المادة فى النماء والازهار ، وكما يدرس الخلايا التنفسية فى تلك الاوراق ويرى كيف تتسرب ذرات الاوكسيجين وجزيئات حمض الكربونيك منها الى أجزاء النبات فتكون له السوق والاغصان والأزهار والاثمار ، على اختلافها فى الالوان والحجوم ،والاشكال والطعوم .

Digitized by Google

القرآن عقب الحوادث كان القصد منه تثبيت النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين، وهذا لا يتم الا بالدعوة الى سبيل النظام الاجتماعي والكمال العمراني، او الى أصول مكارم الاخلاق وتهذيب النفس ، فسنشير ان شاء الله عقب بعض الحوادث الاجتماعية الكبري وقوانين التهذيب الكلية الى مايقابلها من العلوم العمرانية الحديثة وعلم النفس الجديد ليتجلى لقارئ القرآن اعجازه العلمي واشتماله على أصول العلوم العالية وسبقه العالم أجمع الى تقرير الحقائق العمرانية والفلسفية الكبرى

( رابعاً ) الاشارة الى الآيات الناسخة والآيات المنسوخة وبيان أسباب ذلك وحكاية الواقعة التى استلزمت النسخ ، وذلك عقب تفسيرها في محلها

( خامساً ) سيكون ان شاء الله فيه جدول يبين الآيات الكريمة التى فرضت فيها الفرائض علينا ليعرف كل مسلم امهات الاصول الفقهية من كتاب الله تعالى

( سادساً ) سيكون فيه ان شاء الله فهرست كبير ذو فائدة لاتُقدَر وذلك انه يريك مواضع الآيات الواردة في كل موضوع تريد استيفاء البحث فيما قاله الله فيه بمعني انه يدلك على موضع كل الآيات التي وردت مثلا فى ( الالهيات ) او فى ( النبي عليه الصلاة والسلام ) او في (الصلاة) او في (الاخلاق) او فى اى موضوع تريده من مواضيع الكتاب الشريف ،

( سابعاً ) نقل الروايات الواردة فى اختلاف القراآت لكل آية من الآيات الكريمة .

هذه مزايا سبع فى كتابنا لم يحوها كلها كتاب قط ولا تتيسر بسهولة للمؤمنين الذين يريدون ان يبلوا شوق قلوبهم بمعرفتها ويحبون أن يروها مجتمعة سهلة المرام غير مشتتة في أجزاء الكتب الكبيرة .

## ترتيب فصول هذه المقدمة

نحن بايرادنا هذه المقدمة لا نقصد الا غرضاً واحداً ، وهو بذل الوسع فى تصوير بعض الآثار الاجتماعية والخلقية والعقلية التى حدثت فى العالم بواسطة القرآن فى الماضى ، وما نتمتع به منها الآن ، وما هى أهل له فى المستقبل من الحوادث الكبر ، والامور الجسام.

هذا لا شك مطلب صعب المرام لمن يريد أن يؤسسه على القواعد العلمية والعملية

Digitized by Google

روى الجلال السيوطى رحمه الله تعالى عن الامام ابن دقيق العيد رحمه الله انه قال : « بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معانى القرآن.» ونقل عن ابن تيمية رحمه الله انه قال « معرفة سبب النزول تعين على فهم الآية فان العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب» قال الجلال السيوطى عقب هذا: « وقد اشكل على جماعة من السلف معاني آيات حتى وقفوا على اسباب نزولها فزال عنهم الاشكال » اه

واذا كان هذا حاصلا بالنسبة للسلف القريبين من عهد النبوة والوحي فما بالنا نحن ونحن فى القرن الرابع عشر ؟

هذه الحاجة الشديدة من الامة بعثت فينا روح الاقدام لوضع تفسير للقرآن الكريم مستمَد من كتب التفسير المعتبرة ، لا باللفظ ولكن بالمعنى الحقيقي لنتمكن من وضع المعنى في ابسط وأرق القوالب العربية العصرية التي اعتادها الناس وصارت ملكة فيهم ، بشرط اننا لم نضع من فكرنا الخاص فى المعنى الجوهرى للآيات شيئا ، لانا رأينا بالاختبار ان سلفنا الصالح قد بلغ من ذوق المعانى القرآنية والسبح في مغازيها الصميمة الغاية القصوى .

اما الذى لنا فى هذا الكتاب ان شاء الله مما نعده ثمرة لاجتهادنا فهو :

اولا — مقدمة كبيرة فيها تاريخ القرآن الكريم وكيفية نزوله وتعدد قراآته وكيفية حفظه وترتيبه واستنساخه واستلفات القارئ لمعجزته العلمية الكبرى التى تشهد له بالصراحة التامة بانه كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، واقامة الادلة الفلسفية على حفظه من التبديل والتحريف ونقل شهادات كبار رجال العلم الاجانب على ذلك وشهادة بعض اكابر الفلاسفة الاوربيين الذي يعتقدون أنه كتاب سماوي وسبب عقيدتهم هذه مع انهم لا يعرفون العربية ولا يدركون اعجازه من جهة البلاغة ، ويسبق ذلك فذلكة في فلسفة الاديان وما آل الناس اليه في هذا العصر من جهة التدين والى أي غاية هم مسوقون

( ثانياً ) حل الالفاظ اللغوية حلا لايدع حاجة فى نفس القارئ الى المزيد ، وقصدنا بذلك أن يكون لقرّاء القرآن الكريم من كتابهم السماوى مادة لغوية كريمة يستمدون منها عقائل الالفاظ وكرائم الكَلِم في أجمل الكلام وأعلاه مقاماً وهو الكلام الالهي

( ثالثاً ) الاشارة عقب الآيات الى أسباب نزولها والحادثة التى تقدمتها، وبما أن نزول

ابواباً سدها الكهان . من سدنة البطلان ، ويكشف للاذهان . به حقائق العلم وطرائق العرفان ، ويسلك بالارواح به مسالك الايمان ،المستند على بدائه الحس والعيان . هذه بعض وظيفة القرآن الشريف التى أداها لبنى الانسان ، كما شهد به أعداء القرآن ، بل وأعداء الاديان . فأين نحن من فهم هذه الاسرار ، والاشراف على ما أودعت آياته من الانوار ، وما ضمنت من الحقائق الكبار ، والمعارف الغزار ؟

هذا دواء جاء للافراد والامم ، وإكسير نزل من السماء ليبعث الهمم ، بل ويحيي الرمم ، وقد طبق على المرضى فأجاب . وجاء بالعجب العجاب ، فما بالنا لا نطبقه على أنفسنا ونحن نَدَّعى النسبة اليه ،والتعويل عليه ؟

أليس من اكبر الاسباب في ذلك اننا لا نفهم مراميه العالية ، ومغازيَه السامية من جرّاء العجمة التى طرأت على لغتنا لاختلاطنا بالامم جيلا بعد جيل .وقبيلا بعد قبيل ؟

نعم هو ذلك وأضف اليه تساهل بعض العلماء فى مسئلة قراءته بغير تدبر فجرى الناس على ذلك قرونا كثيرة ، لا يحفلُون بما غاب عنهم من معانيه ، حتى وصل الامر الى ما ترى اليوم: يقرؤه الحافظ من اوله الى اخره وهو لا يفهم منه سطراً واحداً بل قد لا يكلف نفسه فهم شيء منه طول حياته . هذا بالنسبة للحافظ. اما العامة فأمرهم أشد وامرُّ، فهم لا يقرءونه ولا يتدبرونه ، ولا يحفظون منه الا سوراً صغيرة يتلونها في الصلاة محرفة ولا يدركون لها معنى ، كأنهم يصلون بمحض الحروف والحركات أما الخاصة فكثير منهم يتلونه فى المصاحف ويفهمون منه شيئاً بالقرائن فقط ، فهماً مضطربا لمجيء ألفاظ في الآيات الكريمة تلجئهم للبحث في القاموس عنها وفى ذلك من المشقة ما يحمل القارئ على الكسل راضياً بما امكنه تحصيله بقريحته ، لانه لو استشار القاموس لكل لفظة يجهل حقيقتها لما استطاع ان يطالع في الساعة عشراً واحداً وهو يريد أن يكمل ورده وهو فى العادة جزء او نصف جزء . ولو فرضنا القارئ فقيهاً فى اللغة وأدرك معاني الكلمات كلها فلا يستطيع ان يفهم القرآن على حقيقته اصلا الا بالمامه باسباب نزول الآيات الكريمة ، فان كثيراً منها نزل منجما على حسب الاحوال والوقائع فمن لم يعرف الحادثة التى نزلت من أجلها الآية او الآيات لا يذوق المعنى ذوقاً يطمئن له قلبه ويثلج به صدره



Digitized by Google

أنت تعرف أن منزلة القرآن من هذه الامة ومكانته من حياتها هى ما وصفت لك قبل قليل من الاسطر ، فكيف تفلح بدونه ، أو تنتعش من وهدتها بشئ خلافه ؟

لعلك تقول وكيف حييت وتحيا الامم الاخرى وقامت على قطبها بدونه ؟ نقول . ان لكل حياة اجتماعية سبباً أصلياً ، ولكل امة روحاً خاصة بها تغار عليها ، وتموت دفاعاً عنها ، وامتك هذه سبب حياتها القرآن وروحها الاسلام ، فكيف يمكن ان تحيا بدونهما ، او تساوي الامم وهى من الانقطاع عنهما على ما ترى من خاصتها وعامتها

القرآن كما كان عند آبائنا الاولين دستور الشخص الواحد فى جميع اموره . يأخذ نفسه بآدابه ، ويحيي فؤاده بآياته ، ويوقظ عواطفه بترغيبه ، ويسكن جمحاته بترهيبه ، ويرتفع به نحو خالقه ، ويعامل الناس على موجبه ، كان كذلك للامة فى مجموعها ، فمنه أخذت قوانينها ، وعليه قاست عاداتها ، وبه قامت على قطبها ، وبنفحته جرت في مدنيتها ، و خلاصة القول انه كان بالنسبة للفرد حياة فؤاده ومادة شعوره ، وكان بالنسبة للامة روحها الاجتماعية ، وحافظتها الرئيسية . فأين نحن من ذلك اليوم

انا جعلنا قراءة القرآن لمحض التبرك فى المنازل ، او لاستجلاب الرحمات فى مقاصير المقابر ، او للتحزن به فى سهرات المآتم ، لاحظ لنا منه الا ترديد الكلمات ، وسرد الصفحات ، أوسماع الاصوات ، والاهتزاز للنغمات . أما السبح فى معانيه العالية ، واستشراف مغازيه الغالية ، والوقوف على أسراره وحقائقه التى احيت آباءنا من القدم ، وجعلت منهم خير الامم ، فلا حظ لنا منه اليوم ، وقد استوى في ذلك الخاصة والعامة . كاننا نود ان نحيا بغير روح ، او نحاكي الامم بغير رابطة

القرآن الكريم كتاب الهى ، ووحى سماوى ، نزل به الروح الامين ، على قلب خاتم النبيين ، وامام المرسلين ، ليحيي به قلوباً أماتتها الشهوات ، وينقذ من الحيرة عقولا سممتها الشكوك والشبهات ، ويحل من الاغلال افكارا قيدتها الخرافات وسجنتها التخرصات ، ويسترد للنفوس حقوقاً اغتصبها القادات ، وسلبها السادات ، ويقيم به دولة الكمالات . وصروح المكرمات ، ويهدم به عروشاً اقامها الاقوياء على أشلاء الضعفاء ، ويجدع به انوفاً شمخت بها الجاهلية الجهلاء ، وابطرتها النعماء ، ويعدل به عوج الحكماء وأود العلماء ، ويفتح به للمدارك

وركعت ، وبه حجت واعتمرت ، وبه قامت ونهضت ، وبه حاربت وسالمت ، وبه عاهدت وناقضت ، وبه خالفت ونابذت ، وبه بحثت وتعلمت ، وبه دوّنت وألفت ، وبه هدمت وبنت ، وان اردت التعبير بلسان هذا الجيل فقل : وبه ترقت وتمدنت ، وبلغت ما بلغت

اذا كان الامر كذلك فالقرآن روح الامة وحياتها ، وبه وجودها وقوامها. فأين نحن اليوم من هذا القرآن ، وما الذى حال بيننا وبينه من زمان ؟

يصيح صائح : تأخر المسلمون ، تقهقر الموحدون ، غلب المتدينون ، أسر المصلون الصائمون ! وينوح نائح :ذهبت الاخلاق ، فترت الهمم ، ماتت العزائم ، طاشت الاحلام ، كسدت العقول ، تراخت الروابط ، ثلمت العواطف ، ! ويندب نادب : ضاعت الامة . كلّ المرشدون ، يئس الاطباء النطاسيون ، قنط الراجون المشفقون ، ذهب الدين. ذهب الدين ! والامة بين هذا وذاك تتألم ولا تعرف الدواء وتئن ولا تهتدي لمواقع الداء ، تتحرك ولكن بغير نظام ، وتحس ولكن بغير روّية ، وتنطق ولكن بغير صواب ، وتنظر ولكن بغير نور ، وتطلب ولكن بغير عقل ، وتشكو ولكن لغير طبيب ، وتسير ولكن على غير هدي ! ما هذا الخطب الجلل ، ما هذا الحادث الكبار ، ما هذا الشأن العجاب ؟ ما الذى أحال هذه الامة الى هذا الحضيض ، ما الذى أنزلها الى هذا الدرك ، ما الذى شككها فى حياتها ، ما الذى أيأسها من ذاتها ، بعد ان كانت كيت وكيت مما لو اردت وصفه لنضب الخيال على سعته ، وغاض بحر الشعر على غزارة مادته

لمَ تنظر ولا تبصر ، لم تشعر ولا تعقل ، لمَ تحس ولا تحفظ ، لمَ تقول ولا تفعل ، لمَ تقوم ولا تثبت ؟ ماذا سلب من مواهبها ، ماذا ضاع من ملكاتها ، ماذا اختل من تركيبها ماذا اضطرب من أجزائها ، ماذا فقد من عناصرها ، ماذا غاب من مقوّماتها ، ماذا فسد من كيانها ؟

ان كنت تعجب من ارتكاس امنك الى هذه الحال بعد أن كانت سيدة الامم ، بل محيية الرمم ، فانا أعجب من عجبك ليس الا ، اما الامة فلا عجب من تأخرها وتقهقرها ، فانها لم تتبع فى ذلك الا السنة الطبيعية « ولن تجد لسنة الله تبديلا » وكيف تقوم بغير قرآنها وتحيا بدون روحها ؟

Digitized by Google

هكذا كان حال سكان الجهات الوسطى والحجاز من الاستقلال وعدم العلاقة بالامم الخارجية . أما من تطرف منهم فى الحدود الشمالية والشرقية فقد وقعوا تحت سلطة الامم المجاورة لهم قال ( جول لابوم ) المتقدم ذكره نقلا عن المسيو ( كوسان دوبرسوڤال ) في كتابه تاريخ العرب ما يأتي : « ان المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين ، أما المتبدون منهم فكانوا فى الحقيقة أحراراً لا سلطة عليهم فكان عرب سوريا دائنين للرومان. أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك بنى حمير سيادة وقتية فكانت تعتبر انها تحت سيادة ملوك الفرس ، ولكنها فى الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذى لا غبار عليه » انتهي

هذا كان شأن هذه الامة من الوجهات السياسية والصناعية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية ، وهو شأن كانت عليه من عهد تكونها الى حين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم اليها ، فلم تتغير عنه في قرن من القرون ، ولم تتحول عنه في جيل من الاجيال ، وها هو تاريخها أصدق شاهد

نزل القرآن الى هذه الامة بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تلبث الا سنين قلائل حتى رأيناها نهضت نهضة الاسد تتلألأ حياة ونوراً ، وتتجلى أخلاقاً وشعوراً ، ثم جالت فى العالم جولة القوي العادل ، وصالت صولة القادر العاقل ، واذا بها أمة الامم ، وصاحبة العلم ، وربة السيف والقلم ، وكاشفة الغموم والغمم. وجالية الظلم والظلم. بل محيية الرمم. بأى واسطة حصل كل هذا التغير الفجائى الذى أدهش العالمين ، وبهر الناس أجمعين ؟ بمحمد صلي الله عليه وسلم الذى أوحي اليه هذا القرآن فجعله دستوراً لنفسه وأمته ، واماماً لاموره وأمور رعيته ، فكان من هذا الامر ما كان مما لو أحفينا الاقلام، وأجهدنا الافهام. لعجزنا عن وصف بعضه ، فما بالك بكله ؟

هذه الامة التي عرفت مبدأها ووقفت على كنه خلافتها فى الارض ، والتى لم يزل تاريخها لليوم زهرة التواريخ وزينة المكاتب ، وآثارها في القلوب والعيون أكبر الآثار وأعظم المشاهد ، حيث بالقرآن وتحركت ، وبه أبصرت وأدركت ، وبه تهذبت وتخلقت ، وبه التأمت واجتمعت ، وبه تضافرت وتساعدت ، وبه صلّت وأخبتت ، وبه صامت

Digitized by Google

الفهرست التحليلي الذى وضعه للقرآن الكريم باللغة الفرنساوية مايأتى [1] ( ومع هذا كله كان هنالك ركن من اركان الارض لم تصبه لفحة من هذه الحركة — يريد الاضطرابات السياسية التى الملت بالعالم فى القرن السادس — ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم بل بسبب موقعهم الجغرافى البعيد عن مضطرب الامم التي كان يقال انها متمدنة ، ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التى ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة فى اوروبا الا عن بعد ، وما كان يصلها ذلك اللغط الا في غاية الضعف والضآلة ، وكانت تجهل وجود الهند والصين فلم تك تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس ولم تعرف لديها الفرس الا بواسطة اخبار الانتصارات او الهزائم التى كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من سوريا الى تبعية امبراطورة القسطنطينية تبعية اسمية او رفع نير تلك التبعية الاسمية عنها ، على ان ذلك الوادى الاخير كان يهم بلاد العرب جداً لأن ابناءها كانوا يذهبون اليه للتجارة وكان لهافيه ابناء استعمروا الشاطئ الغربى من نهر الفرات وصعدوا رويداً رويداً الى بحر قزوين وما يشبه المساتير الدينية فانها بقيت منفصلة عن القطر المصرى الذى أغار على جنوبه العرب الرعاة ولم ينجلوا عنه تماماً الا بعد ان انجلى عنه بعض اخوانهم المتأخرين وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى ( عليه السلام ) حيث استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم ، اما المملكة الوحيدة التى كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهى بلاد الحبشة، اما الجهة الشمالية من افريقيا التى اغاروا عليها بعدمرتين والتى كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجيين وبين يونان القسطنطينية والفنداليين فكانوا لا يحلمون بوجودها » انتهي

---

(١) هنا يحسن بنا ان ننبه قارئنا الى هذه المسئلة وهى : اننا كثيراً ما نستشهد فى هذه المقدمة بأقوال بعض العلماء الاجانب ، لا اعتزازاً بهم ، أو اطراء لآرائهم ، أو اتخاذاً لهم أعلاماً للدين ، بل غرضنا ان يكون كلامنا أبلغ فى الحجة وألصق بمقاتل الخصم المعاند . فان حجة الذي يستشهد بعدوه فيشهد له صاغراً ، أدمغ من حجة الذى يستشهد بأخيه أو ابن عمه . وعلى هذا الاسلوب جرى أسلافنا فكل التفاسير وكل كتب السيرة المحمدية مستشهدة بأقوال المشركين وغيرهم ممن شهدوا للقرآن بالاعجاز والبلاغة والحكمة . هذا ما نود أن يعرفه كل من يلاحظ علينا كثرة استشهادنا بأقوال الاجانب.

Digitized by Google

اقتصادية رأيتهم على أدنى الحالات منها : جُلُّ مالهم الابل والغنم يتنقلون بها من مرعى الى آخر يتغذون من لحومها وألبانها ويتدثرون وبارها وأصوافها لايعرفون التجارة الا اسما ولا يفهمون التعاوض الافيما بين أيديهم من حاجات الحياة الضرورية، اللهم الا قليلا من رجالاتهم الذين كانوا يحملون بعض السلع العربيـة من مكة والطائف ويثرب الى بعض قرى الشام واليمن فيجتلبون بدلها من اشياء تلك البلدان حليا وأقمشة وانواعاً مما يقتضيه ترف الحياة المدنيـة . أما من عداهم فكانوا على مانصف من خشونة الملبس والمسكن. وجشوبة الحال والمال

ولو شارفتهم من حيثية علمية لرأيتهم على أبسط مايتصور من حالات الجهالة : لم يهتموا بتعلم القراءة والـكتابة ولم يلتفتوا الى مايبعد بهم عن العلم بالمحسوسات التى بين أيديهم لم يؤثر عنهم أنهم عرفوا فنا من الفنون ، او برزوا في فرع من افرع المعارف الانسانية ، اللهم الا الشعر فلقد كانت لهم فيه ملـكة عالية ، صقلتها لهم طبيعة بلادهم الطيبة الهواء الصاحية السماء. ولـكنك لو استعرضته لعقلك لما رأيت فيه من جهة الخيال الذي هو روح الشعر وحياته كبير شئ فما هو الا تشبيهات بالمحسوسات ، وإلفات الى المجسمات وحكم أفادتها التجارب. وأكسبتها للشيوخ المصائب ، أما مايطير بالنفس من الشعر في آفاق الاحلام ، ويجول بها من عالم المعانى فى حدائق ذات افنان ، ويعاطيها من رحيق الخواطر والامانى جرعا ذات معان فليس فى الشعر العربى منه شيء الا فى كلام المولدين بعد ظهور الاسلام وتلألؤ مدنيته الزاهرة فى آفاق المعمور . أما مايأخذ بنفوسنا اعجاباً واكباراً للشعر العربى القـديم اليوم فهو عراقته فى العربية ، ونغمته البدوية ، وجزالته اللغوية ليس غير. ثم لو استعرضت حالتهم من وجهة صناعية لرأيتهم منها بالمكانة الدنيا . وماذا ترجى من الصناعة فى قوم بيوتهم الشعر لايكادون يسكنون الى جناب حتى يزعجهم الجدب الى جناب آخر . اللهم الا اهل مكة والطائف ويثرب فقد كان لهم منها مايقيم بعضاً من حاجياتهم الضرورية ولـكنهم من جهة عمومية يحتاجون لجلب مايلزمهم من الشأم واليمن فى كل حين

ولو لحظتهم من جهة سياسية لما وجدت لهم أدنى علاقة بالبلاد الخارجية من حيث اتحاد واتفاق ، او عهد وميثاق ، لا لأمر غير كونها قليلة الاهمية فى نظر الامم جمعاء وليس لها من الشؤون مايجعل لها وزناً في ميزان السياسة العام قال المسيو (جول لابوم) فى مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل القرآن من فيض رحمته ، وجعله هدىً للسالكين الى حضرته ، ونوراً للأرواح تسبح في سبحات بهجته . وربيعاً للقلوب تسرح فى روضته ، وشفاء للصدور تستشفى بحكمته ، وزماماً للفكر في شطحه وجولته،وقيادا للعقل فى جمحته وصولته، وطهوراً للعلم من عتوّه وشرّته ، وملاكا للعالم فى خطته ، ومحاراً للمفكر فى حيرته ، ومناصاً للفيلسوف من ورطته ، ودستوراً للحاكم فى حكومته ، ونظاماً للمحكوم في مهنته ، وحياة للعالم برمته . (أحمده) حمد مقر بالعجز عن شكر نعمته ، معترف بالتقصير عن القيام بواجب عبوديته ، (وأصلى وأسلم) على صفوة خليقته ، وتمة ابداعه فى صنعته ، وجمال الكون وزهرته ، وكمال الخلق وخلاصته ، وترجمان الحق وخليفته ، ورسوله الى العالمين بكلمته ، (محمد) نور الوجود وخيرته ، وعلى آله وصحابته ، وحزبه وعترته ، الى يوم الدين آمين

(اما بعد) فلا يخفى على مسلم من أىّ طبقة كان أن القرآن الكريم هو كلام الله الذى أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم نوراً وهدى لخير أمة أُخرجت للناس وهى الامة الاسلامية ، وان هذه الامة قبل ان يجيئها هذا الكتاب الكريم كانت قبائل متشتتة ، لاتجمعهم صلة دينية ، ولا مصلحة اقتصادية ، ولا تضمهم رابطة سياسية ، شغلهم الحروب والغارات ، وديدنهم توارث العداوات ، ان نظرتهم من وجهة اجتماعية وجدتهم على أبسط درجات الاجتماع الانسانى : قبائل متبدية ترحل من محلة الى أخرى طلباً للمراعى الخصبة وارتياداً للمياه العذبة ، وهم من التفاصل والاستقلال بحيث تتقد بينهم نيران الحروب عشرات من السنين من جراء سبق حصان . او خيانة في رهان . وان واجهتهم من جهة

Digitized by Google

(RECAP)
2273
.972
2

Digitized by Google

مقدمة

# صفوة العرفان

## في

# تفسير القرآن

تأليف

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة الشعب بشارع محمد علي بمصر

شوال سنة ١٣٢١

Digitized by Google

Digitized by Google

Princeton University Library
32101 073254615

Digitized by Google

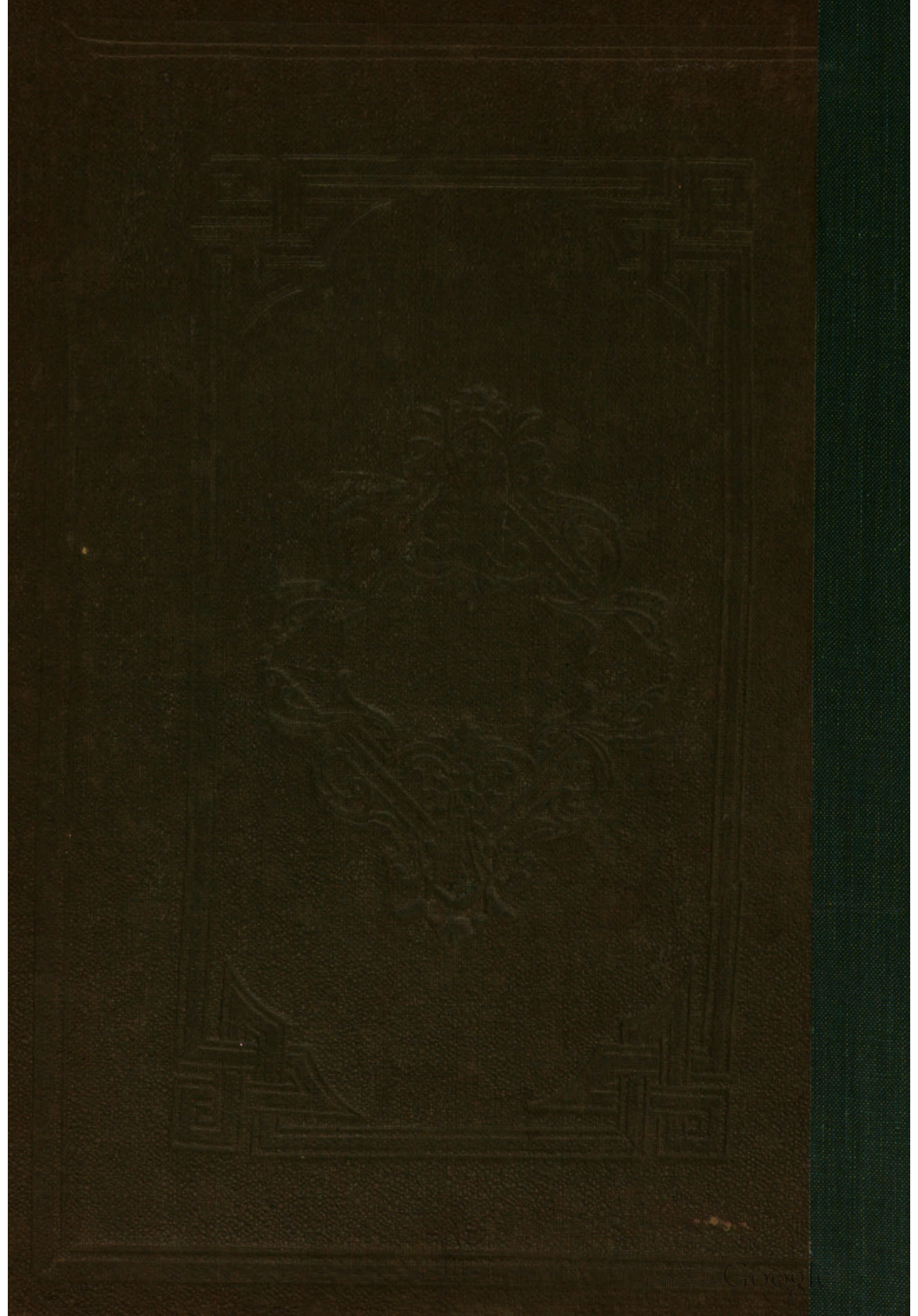
Digitized by Google